OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

دراسة أدب الأخلاق في الأدب العربي

Thestudy ofEthics inArabic literature

الأستاذ الدكتور الحافظ عبدالرحيم

رئيس قسم اللغة العربية، جامعة بهاء الدين زكريا، ملتان

رحمت الله

باحث الدكتوراه في العربية جامعة بهاء الدين زكريا، ملتان

Abstract

Allah Almighty has mentioned in the Noble Qur'an that He has the Most Beautiful Names, so we use them when we pray and praise Him. These beautiful names are extremely important, and the importance of understanding them correctly shows that it is an important part in believing in His Divinity, and it is also an important subject studied by other sciences, including the science of rhetoric. This research studies what relates to these beautiful names, and its rhetorical secret in the pre and post positioning between the two names or the two attributes of Allah Almighty.

Keywords: Quranic Rhetoric, Pre and Post Positioning, Good names for Allah, Interpretation, Ibn Adil.

مفهوم الأخلاق لغة

يجدر بالذكر بأن نجد هنا مصطلحات عديدة تستعمل في هذا المجال مثل: تهذيب الأخلاق، وعلم الأخلاق وأدب الأخلاق وفلسفة الأخلاق والحكمة الخلقية.وكذلك استعمالات كثيرة للفظ "الخلق".وقد وردت أقوال العلماء اللغويين في بيان مفهوم الأخلاق لغة واصطلاحا وهي كالتالي:

يقول صاحب القاموس المحيط: " الخُلْقُ بالضم وضمتين السجية والطبع والمروءة والدين".1

يقول ابن منظور:"الخُلُقُ والخُلْقُ السجية .. فهو بضم الخاء وسكونها الدين والطبع والسجية."2

يفسرابن منظور بقوله:"حقيقة الخلق بأنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه،وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة".3

يقول الراغب الأصفهاني:"الخُلْقُ في الأصل شيء واحد كالشّرب والشُّرب والصَّرْم والصَّرْم لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخُص الخُلْقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة،قال تعالى:{ وإنك لعلى خُلق عظيم}".4

مفهوم الأخلاق اصطلاحا

عرف العلماء الأخلاق بتعريفات كثيرة من أهمها:

عرف الفارابي بأنها "علم يفحص عن الغرض الذي لأجله كون الإنسان وهو الكمال الذي يلزم أن يبلغه ثم يفحص عن جميع الأشياء التي بها يبلغ الإنسان ذلك الكمال أو ينتفع في بلوغه وهي الخيرات والفضائل والحسنات ويميزها عن الأشياء التي تعوقه عن بلوغ ذلك الكمال وهي الشرور والنقائص السيئات وهذا هو العلم المدني وهو علم الأشياء التي بها أهل المدن ينال السعادة كل واحد بمقدار ما أعد له بالنظر".5

عرف ابن مسكويه (ت 431هـ) الأخلاق بأنها " حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم الى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب ، وكالإنسان الذي يجن من ايسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعة أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أي شيء يعجبه،وكالذي يغتم ويحزن من أيسرشيء يناله. ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً".6،7

عرف الغزالي(ت 505هـ) بأنها " هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة من غير حاجة الى فكر وروية".8

قال التهانوى (ت 1158هـ) في هذا الصدد:"إما علم بمصالح شخص بانفراده، ويسمى تهذيب الأخلاق، وعلم الأخلاق والحكمة الخلقية. وفائدتها تهذيب الأخلاق أي تنقيح الطبائح بأن تعلم الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكى بها النفس، وأن تعلم الرذائل وكيفية توقيها لتطهرعنها النفس".9

ويلاحظ من التعريفات السابقات أنها تميل إلى منهج فلسفي الى حد بعيد فابن مسكويه كما يقول عبدالله دراز " كان متأثراً في تفكيره الأخلاقي بالتفكير الأرسطى ، بل كان يتبع ارسطوا في هذا التفكير تماماً .. ولا أقول: إن أفكار أولئك نسخه من أفكار هؤلا في جميع نواحيها ذلك أن للإسلام ولجهودهم الفكرية أثر في بعض نواحي تفكيرهم أيضا.10

ومع ذلك فإن التعريفات قد كشفا لنا معان مهمة من معاني الأخلاق فهي صفات مستقره في النفس الإنسانية تصدر عنها الأفعال وردودها سريعة بطريقه تلقائية لا تكلّف فيها ، وبهذا تظهر الأخلاق .

هناك استعمالات كثيرة للفظ "الخلق" ومنها:

يستعمل اللفظ في معنى القوى الغريزة" أي الهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر" وهذا قريب من معنى السجية والطبع Characte.

ويستعمل للدلالة على "الحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقا أن يفعل شيئًا دون شيئ كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه وهذا قريب من معنى المزاج temperament.

ومنذالزمن القديم ميز علماء الدين في الإسلام بين الأحكام ومكارم الأخلاق. أما الأحكام التي تشرع للعبادات والمعاملات وما يتصل بها من عقاب وثواب الخ، فهي لا تشكل إلا نسبة صغيرة من عدد آيات الذكر الحكيم. أما الباقي فكله في الأوامر والنواهي الأخلاقية أو تدور حولها. وفي الجملة فمن جميع آيات القرآن، المكية والمدنية، التي يبلغ عددها 6236 آية، ليس هناك في موضوع "الأحكام" سوى 634 آية حسب الفقيه ابن العربي و500 آية حسب الغزالي، من القدماء، بينما يحصرها بعض المحدثين في 300 أو 340 آية، وينزل بها آخرون إلى نحو 200 آية.

وبما أن القرآن الكريم (والسنة النبوية المبينة له) لم يشرع لجميع جزئيات الحياة، ما كان منها عصر النبوة وما طرأ بعدها، وهو كثير، فإن تطبيق الأحكام الشرعية على المستجدات التي كاثرت باتساع رقعة بلاد الإسلام وتنوع عادات أهلها وأعرافهم وخضوع ذلك كله لسنة التطور، يقتضي الاجتهاد لالتماس الحكم الشرعي من القرآن والسنة.

قال العلامة القرضاوي: "لاشك أن الإسلام ومن قبله الرسالات السماوية كلها اهتمت بهذا الجانب القيَمي أو الأخلاقي أو السلوكي الذي يعتبر ثمرة للجانب الإيماني والاعتقادي، الإسلام يعتبر الإيمان الحقيقي مجسداً في أخلاق، سواء كانت هذه الأخلاق ما نسميه بالأخلاق الربانية أم ما نسميه بالأخلاق الإنسانية، هناك أخلاق ربانية مثل التوكل على الله، الشكر لنعمة الله، الحياء من الله، الخوف منه، الرجاء في رحمته هذه كلها أخلاق ربانية، ويجب على الإنسان المسلم أن يتحلى بها، وهناك أخلاق إنسانية مثل الصدق والأمانة والشجاعة والسخاء ، البذل والتضحية، والتعاون والإحسان إلى الآخرين وإلى الضعفاء، والتواضع والحياء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الحياء شعبة من شعب الإيمان" ومن هنا نجد القرآن الكريم حينما يذكر لنا الإيمان يجسده في الأخلاق مثل قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) فهنا يمثل الأخلاق الربانية، (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ... حافظون} العفة وهذا أيضاً من

الأخلاق الأساسية في الإسلام، العفة عن الحرام سواء كانت العفة عن المال الحرام أو عفة الفروج عن ارتكاب الحرام ومن هنا كان النبي عليه الصلاة والسلام طوال العهد المكي خلال ثلاثة عشر عاماً وهو يربي الجيل الأول الذي سيحمل عبء الدعوة الإسلامية فيما بعد ويقوم على أساسه وعلى أكتافه المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ونشر الإسلام في العالم كان أهم ما يربى عليه هذا الجيل الجانب الإيماني، لم يكن هناك تشريعات ولا أحكام في ذلك الوقت المبكر لفجر الدعوة الإسلامية، وذلك لأن الأخلاق هي قوام الشخصية الإنسانية، الإنسان بأخلاقه والأمم بأخلاقها".

مصدر الأخلاق عند الأدباء المسلمين

كانت الأخلاق من أول عهد الإسلام مبنية على الدين و مصدرها القرآن الكريم والأحاديث النبوية وحكم وأمثال وصلت إلى العرب من تجارب الزمان.فلما دخل كثير من الفرس في الإسلام وكانت لهم ثروة كبيرة من الحكم والأمثال في جميع مرافق الحياة نقلوها إلى العربية، قال محقق حمد ممدى وكان ايرانيون كان الإيرانيون في العصر الساسانى يهتمون بكتب النصائح والحكم ، وكانوا يطلقون على عناوينها "اندوزنامة" و "بندنامه" وهى مشتملة على مواعظ ووصايا في الآداب والأخلاق منسوبة إلى الملوك الساسانيين وحكماء إيران القدماء".11

ويذكر محمد محمدى في مقاله بعنوان: "كتاب التاج"للجاحظ ، علاقته بكتب "تاجنامه" في الأدب الفارسي الساساني" أنه قد وصل إلينا قسم هذه الكتب بنصوصها البهلوية أو مترجمة إلى العربية.12

ويقول محققه أحمد زكي باشا في مقدمة هذا الكتاب:"نتعرف به مقدار التأثير الكبير الذي كان للحضارة الفارسية في الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين ، حتى لقد ينسى الجاحظ خطته ومنهاجه فيسرد بعض عادات الفرس ورسومهم القديمة، كأنها مألوفة في تلك الأيام؛ وهي مما لا يكون تحت حكم الإسلام. وهذا الكتاب تدلنا عباراته على أن الجاحظ استخدم بعض التصانيف التي وضعها الفرس في هذا المعنى".13

يقول الجاحظ في كتابه " المحاسن والأضداد: "إنه في تاريخ الإيرانيين حوادث عظيمة وأيضا مواعظ و حكم عامة المنفعة وأيضا في الأمور التي علوهم و عظمتهم".14

فقد نقل ابن المقنع (ت 146هـ) حكم الفرس وأمثالهم، وقصصهم، والقصص الرمزية التي تشير إلى الأخلاق مثل:"كليلة و دمنة"، وملأ اللغة العربية بهذه الجمل اللطيفة الرشيقة التي تدل على

عقل واسع، وتجربة ناضجة هذه حكم في الأخلاق الفردية، و الأخلاق الاجتماعية".15 ثم نقلت كتب اليونان إلى اللغة العربية.

فلسفة الأخلاق عند اليونان:

فلسفة الأخلاق عند اليونان"وهي موضوعات علم الأخلاق التي انعكست في المؤلفات العربية من الكتب الفلسفية اليونانية . وتختلف آثارها تمامًا عن كتب الدين الإسلامي، وتوجد ضمن العلوم أو المعارف التي أخذها العرب عن اليونانيين، وتعرف مادتها العلمية باسم "علم الأخلاق" وترجمت كتبها إلى اللغة العربية وطبقا لتقسيم أرسطو يعتبرعلم "الأخلاق" قسما من الفلسفة العملية. وقد خلف اليونانيون آثارا عديدة و متشعبة في هذا الموضوع، لكن أساس هذا العلم عند المسلمين هو "أخلاق" أرسطو الذي ترجم إلى اللغة العربية وأفاد العرب منه كثيرا".16

ترجم الفارابي "كتاب الأخلاق" لأرسطو إلى العربية وهو أكبر كتاب لدى المسلمين في الأخلاق الفلسفية. وهناك كتب أخرى نقلت من اليونانية إلى العربية في هذا الموضوع ، تفسير فرفوريويس" الذي ترجمه إسحق بن حنين، أما أهمها على الإطلاق فهو كتاب "أثولوجيا". وهو كتاب مشتمل على المباحث الأخلاقية للنظرية الأفلاطونية الجديدة.

وخلف المسلمون آثارا عديدة في هذ الموضوع من الكتب الأخلاقية، وأشهر من ألف في هذا الموضوع ابن مسكوية والإمام الغزالي وإخوان الصفا ونصير الدين الطوسي".17

وكان من هذه الكتب كتب في الأخلاق ككتاب الأخلاق لأرسطو وغيره، فهضمها المسلمون ونقلوها، وفلسفوا الأخلاق. "ومنهم من كان يعمل في الأخلاق ما عمل بعض الفلاسفة في الفلسفة، إذ عرضوا علم الأخلاق هذا علم الإسلام، فمالم يقبله الإسلام رفضوه، وما قبله تقبلوه، و مزاجواذلك بالدين".18

ويعرف الفارابي بالأخلاق بقوله: " هي علم يفحص عن الغرض الذي لأجله كون الإنسان وهو الكمال الذي يلزم أن يبلغه ثم يفحص عن جميع الأشياء التي بها يبلغ الإنسان ذلك الكمال أو ينتفع في بلوغه وهي الخيرات والفضائل والحسنات ويميزها عن الأشياء التي تعوقه عن بلوغ ذلك الكمال وهي الشرور والنقائص السيئات وهذا هو العلم المدني وهو علم الأشياء التي بها أهل المدن ينال السعادة كل واحد بمقدار ما اعد له بالنظر".19

وبرأيه أن الأخلاق المحمودة أو المذمومة كالصناعات فكما أن الحذق في الكتابة لا يحصل إلا بالعادة والمران هكذا الأخلاق أيضاً فهي لا تكتسب إلا بالممارسة ..

وعرف أبو نصر الخلق بقوله "هو الذي تصدر به عن الإنسان الأفعال القبيحة والحسنة بمعنى آخر هو الذي تكون به الأفعال وعوارض النفس إما جميلة أو قبيحة".20

وقسم الفارابي الخلق إلى نوعين:

1- الخلق الجميل: وهو الفضيلة الإنسانية ومتى حصل لنا خلق جميل وصارت لنا قوة الذهن حصلت السعادة..والخلق الجميل يحصل عن الاعتياد والأفعال متى كانت متوسطة ((معتدلة)) حصل الخلق الجميل ..

2- الخلق القبيح :وهو عكس الخلق الجميل ويرى الفارابي أن الخلق القبيح هو نوع من السقم النفساني.21

هذا وتستمد نظرية الفارابي في الأخلاق أصولها من النظرية اليونانية الأخلاقية بصفة عامة تلك التي ترى في السعادة الخير الأقصى للحياة الإنسانية بكافة أنشطتها كما أنها تتبع بصفة خاصة من موقف أرسطو الأخلاقي فالأخلاق عند كل من الفارابي وأرسطو علم عملي أي أنه يقوم على ممارسة الأفعال المحمودة وإتباع القدوة الصالحة لاكتساب ملكة الأفعال الأخلاقية فكل إنسان حاصل على القدرة على فعل الخير ولكنه ينميها بالفعل والممارسة"وكذلك فإن الأخلاق الفردية عند أرسطو والفارابي تخضع للعلم المدني أي لعلم السياسة فكأن السلوك الفردي يتفرع من السلوك الاجتماعي وهكذا يظهر الارتباط الوثيق بين نظرية الفارابي في المدينة الفاضلة ونظريته الأخلاقية من حيث أن السعادة غاية الفرد وغاية الاجتماع المدني على السواء."22

يعطي الفارابي للأخلاق شأناً كبيراً في حياة الأفراد فكما أن علم المنطق يصنع قوانين المعرفة فكذلك علم الأخلاق يضع القوانين الأساسية التي ينبغي أن يسير عليها الإنسان في سلوكه بالرغم من أن شأن العمل والتجربة في الأخلاق أكبر مما هو في المنطق.

والأخلاق عند الفارابي ممارسة فإن الأشياء التي إذا اعتدناها اكتسبنا الخلق الجميل هي الأفعال التي شأنها أن تكون في أصحاب الأخلاق الجميلة والتي تكسبنا الخلق القبيح هي الأفعال التي تكون من أصحاب الأخلاق القبيحة ..

فلسفة الأخلاق عند ابن مسكوية

وقد تبحر ابن مسكوية (ت 320هـ - 421هـ) في الأخلاق الفارسية لفارسيته ، وفي الأخلاق اليونانية لثقافته بها. وقد ألف في الأخلاق كتبا كثيرة مثل "تهذيب الأخلاق "والفوز الأصغر" "وكتاب جاويدان خرد" بمعنى العقل الخالد إلى غير ذلك من كتب تدور كلها حول الأخلاق. "وكانت مصادره في الأخلاق : (1) الفلسفة اليونانية، (2) الكتاب والسنة (3) تعاليم الفرس و حكمهم، (4) تجاربه الشخصية. وكما أنه قد اطلع على فلسفة الكندي (ت 252هـ) والفارابي (ت 339هـ) ففلسف الأخلاق بعد أن كانت حكما؛ وعنى بمعرفة النفس وقرأ فيها كثيرا، وحللها كثيرا، وبني فلسفته الأخلاقية على العلم بالأمور لنفسية أيضا واطلع فى الأخلاق على الآراء افلاطون وأرسطو و جالينوس".23

يشتمل "تهذيب الأخلاق على ست مقالات على العناوين التالية: المقالة الأولى: مبادى الأخلاق، النفس وقواها، الخير الفضائل والرذائل ، المقالة الثانية : الخلق و تهذيبه، الكمال الإنساني وسبيله . المقالة الثالثة: الخير وأقسامه، السعادة ومراتبها المقالة الرابعة: العدالة المقالة الخامسة: المحبة والصداقة المقالة السادسة. صحة النفس، حفظها وردها.

يقول مسكوية في مقدمة كتابه: "غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب صناعي".24

يقرر مسكوية أن الأفعال والقوى التي يختص بها الإنسان من حيث هو إنسان وبهاتتم إنسانيته و فضائله: ليست هي الأفعال التى تصدر عن جسمه والتي تشترك معه فيها الحيوان، مثل التغذية والنمو والإحساس، والتي هي موضوع العلم الطبيعي، بل هى "الأمور الإدارية التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز. وهى لذلك تنقسم إلى الخيرات والشرور" "الخيرات" هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه من الأمور التي بها وجد ومن أجلها خلق ، والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله أو وانصرافه".25

واجتهد أن يوافق بين المذاهب اليونانية المختلفة ودين الإسلام. و نقل الأخلاق نقلة جديرة بفلسفتها؛ وإن كان شاركه في ذلك العمل غيره، مثل محمد أبي بكر الرازي (ت 320) وأخوان الصفا. لقد بدأ قبله الجاحظ في فلسفة الأخلاق، كما فصل في رسالة (الحاسدو المحسود) وكما فعل في تحليل نفس أحمد بن عبدالوهاب()، وكالذي نجده من حين إلى حين في بعض رسائله، وفي كتاب

الحيوان،ولكن مزية مسكويه "أنه وضع للاخلاق نظاما شاملا وفلسفة كلية. ولقد كان مسكوية على ما يظهر متدينا يحافظ على العقائد الإسلامية في أثناء كتابته ولا يقبل من الفلسفة اليونانية والفلسفة الوثنية على العموم إلا ما يتفق والإسلام".26

فلسفة الأخلاق عند الغزالي

ألف الغزالي(455 – 505هـ) في الفقه والأصول والكلام ، وفي المنطق والفلسفة والتصوف مؤلفاته كثيرة في علم الأخلاق وأهمها كتاب "إحياء علوم الدين". وإنَّما بالمعنى الذي أطَّره الإمام الغزالي بقوله:"الخلق عبارةٌ عن هيئةٍ في النَّفس راسخةٌ، عنها تصدر الأفعال بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويَّة... وإنَّما اشترطنا أن تصدر الأفعال بسهولة من غير رويَّة لأنَّ من تكلَّف بذل المال أو السُّكوت عند الغضب بجهد ورويَّة لا يقال خُلُقُهُ السَّخاء والحلم".(27)

يقول الدكتور زكى مبارك: "كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي... و لكنه يفهم علم الأخلاق بشرح طرائق السلوك ، وفقا لما سنة الشريعة السمحة، ورسمه الصوفية فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى مارسمته الشريعة و خطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام، ومن سبقهم من الأنبياء، والصديقين، والشهداء . ويؤيد أبحاثه بكلام الصوفية و ربما نقل ماروي عن عيسى و موسى وداؤد ومن إليهم من الأنبياء.28

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل... ولهذه الأصول فروع ، فمن اعتدال قوة العقل يحصل: حسن التدبير، وجودة الذهن وإصابه الظن، والتظن لدقائق الأعمال، وخفايا آفات النفوس. وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه: الكرم ، والنجدة والشهامة وكسر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، وكظم الغيظ، والتودد. وأما خلق العفة عنه: السخاء، والحياء، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع، واللطافة ، والمساعدة و الظرف، وقلة الطمع."29

تعد الأخلاق... أحد الموضوعات التي ترجم كثير من كتبها من اللغة البهلوية إلى العربية، وتركت أثرا ظاهرا في الأدب العربي . والمقصود بالأخلاق ...تلك المجموعة من الكتب البهلوية التي كانت موجودة في العصر الساساني من نوع "روزنامه" و "بندنامه" أي كتاب النصيحة و كتاب الحكمة و أمثالها.

"لقد استقبل المجتمع الإسلامي كتب الأخلاق والحكمة العملية الساسانية استقبالا حافلا، وأحرزت شهرة عريضة وأهمية بالغة بين طبقة الكتاب المسلمين وأهل الأدب أكثر من تأثرها بالفلسفة

اليونانية، لقربها إلى العقل العربي الذي يحب تركيز تجارب السنن الطويلة في كلمات قصيرة، ولهذا لما عثر العربي على هذا النوع من الحكم أعجب به وأدخله في تراثه وأضاف إليه ماكان له في الجاهلية".30

عرض الأدباء العرب كتب كثيرة في هذا الموضوع منها: الأدب الكبير والصغير لابن المقفع و عيون الأخبار لابن قتيبة والكامل للمبرد وكتاب التاج والحيوان والرسائل للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه.

نماذج من الأدب العربي:

نموذج من كتاب "الأدب الصغير" لابن المقفع:

الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك.31

ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم بمالا تعلم.32

الملك الحازم يزداد براي الوزراء الحزمة، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار.33

ومن لا إخوان له، فلا أهل له؛ ومن لا أولادله، فلا ذكر له، ومن لا عقل له ، لادنيا له ولا آخرة؛ ومن لامال له، فلا شئ له.34

قال برز جمهر: ليث شعري أي شيئ أدرك من فاته الأدب، وأي شيئ فات من أدرك الأدب.35

وقال برزجمهر في ذم المرض: إن كان شئ فوق الموت فهو المرض وإن كان شئ مثله فهو الفقر، وإن كان شئ فوق الحياة فهو الصحة و الشباب، وإن كان شئ مثلهما فهو الفني.(36)

نموذج من كتاب "الكامل للمبرد"

من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضيعا و بعد صيته وإن كان خاملا وساد وإن كان غريبا وكثرت الحاجة إليه وإن كان غريبا وكثرت الحاجة إليه وإن كان مقترا".37

وقيل لرجل من ملوك العجم: متى يكون العلم شرا من عدمه؟ قال "إذا كثر الأدب و نقت القريحة.38

وقال أرد شير : من لم يكن عقله أغلب خلال الخير عليه كان حتفه في أغلب خلال الخير عليه.39

ننظر أن الذوق العربي استقبل هذا النوع من الحكم لقبوله الذوق الفارسي . مثل ما ورد في كتاب "العقد الفريد" تحت العنوان "أمثال أكثم بن صيفي وبرزجمهر" ولم يحدد مالكل منهما، فكان من الصعب التمييز في أكثرها بين ماهو لأكثم وما هو لبرزجمهر، فيمايلي ماورد في كتاب "العقد الفريد".

أمثال أكثم بن صيفي و برزجمهر الفارسي.

"العقل بالتحارب ، الصاحب مناسب، الصديق من صدق عينيه بالغريب من لم يكن له حبيب، رب بعيد أقرب من قريب، القريب من قرب نفعه، لوتكاشفتم ما تدافنتم، خير أهلك من كفاك، خير سلاحك ما وقال، خير إخوانك من لم تخبره رب غريب ناصح الجيبه أخوك من صدقك، مكره أخاك لابطل، تباعدوا في الديار وتقاربوا في المحبة ، أحسن يحسن إليك ، ارحم و ترحم من بريوما بربه ، في كل خبرة عبرة، من مأمنة يوتي الحذر ، إذا نزل القدر عمي البصر وإذا نزل الحين نزل بين الأذن العين، الخمر مفتاح كل شرو القناعة مال لا ينفد، القلم أحد اللسانين".40

دونت كتب الأخلاقية والحكمة العملية في العصور الإسلامية . وتشكل أهم قسم من أقسام الأدب الإسلامي عامة و العربي مخاصة.

الفرق بين الأدب الفارسي والأدب اليوناني الذي يتأثر العقل العربي هي تسمى "الأدب الأخلاقى" المجموعة من التعاليم والأمثال والحكم والموضوعات الأخلاقية التي جمعها مؤلفوا الآثار الأدبية العربية من مختلف الثقافات، ويعد كتاب "عيون الأخبار"لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبدربه أحد هذه الكتب والذي يمكن إدراجه كنموذج قيم لهذا النوع.

نثر الحكمة في فنون النثر العربى خاصة في المكاتبات : وهي مجموعة من الآثار الأدبية والأخلاقية الإيرانية وردت إلينا على شكل رسائل ، كانت تتبادل بين شخصين، وغالبا كانت ترد على شكل نصائح، تكتب من والدإلى ولده. وهذه الآثار تحرز أهمية كبيرة من الناحية التاريخية والأدبية والأخلاقية.

"وهناك رسالة بقيت في الكتب العربية ينسب تحريرها إلى خسروبرويز رد إلى ابنه "شيرويه" عند ما سيطر شيرويه على الحكم وقبضه على والده خسرو برويز وإيداعه السجن. وقد حظيت هذه الرسالة بشهرة واسعة لأنها كانت تضم مواعظ أخلاقية و تعاليم فيما يتعلق بكيفية إدارة الملك و تدبير المملكة مما يغرم به كتاب الأدب والأخلاق خاصة، وأن أقوال خسرو برويز إلى ابنه تظهره أباحنونا يرسل

نصائحه المخلصة لابنه الذي سوف يخلعه، وفتد فيها على كل إدعاءات شيروية وملأها بالنصائح والمواعظ".(41)

نقل ابن قتيبة بعض ماورد من هذه الرسالة في كتاب "عيون الأخبار": وقرأت في كتاب التاج: قال أبرويز لابنه شيروية وهو في حبسه: " لاتوسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تقيقن عليهم فيضجوا منك، أعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ووسع عليهم في الرجاء ولا توسع عليهم في العطاء.(42)

وكما ورد في نفس الكتاب الآتي: "وقرأت في كتاب أبرويز إلى ابنه شيرويه وهو في حبسه: "عليك بالمشاورة فإنك واجد في الرجال من ينضج لك الكيّ ويحسم عنك الداء ويخرج لك المستكين ولايدع لك في عدوك فرصة إلا انتهزها ولا لعدوك فيك فرصة إلا حصنها، ولا يمنعك شدة رأيك في ظنك ولا علو مكانك في نفسك من أن تجمع إلى رأيك رأى غيرك.(43)

فلسفة الأخلاق عند الجاحظ: اهتم الجاحظ علم الأخلاق في معظم كتبه. فعلى صعيد النظرية الأخلاقية يمكن القول إن نظرية الجاحظ الأخلاقية مبثوثة في معظم كتبه، فإن كتبه بعيدة في عناوينها عن الأخلاق بل هي ليست أقل قيمة من الكتب الوضحة الأنتساب إلى الأخلاق على سبيل المقال أن كتابه الحيوان حوى/ حشر الكثير من الرؤي والمواقف الأخلاقية ، وكذلك شأن كتابه المحاسن والاضداد الذي هو في محورة كتاب في الأدب واللغة.

أما القيم الأخلاقية عنده فقد كان نصيبها أكثر من سبعة كتب ورسائل كبيرة ، فقد تناول الأمانة والائتمان في كتاب مستقل هو استنجار الوعد ووقف عند العداوة والحسد والحاسد والمحسود. وتناول الأمانة والائتمان و خاصة فيما يتعلق بحفظ السبر في كتاب كتمان السروحفظ اللسان. ومثل ذلك فعل فى المؤدة والخلطة في كتاب حمل العنوان ذاته. ووقف عند الجد و الهزل في كتاب بالعنوان ذاته أيضا. وأفرد لقيمة النبل وما يتعلق به كتابا حمل عنوان النبل والتبل وذم الكبر.(44)

أما الأخلاق المشخصة أي توصيف الأخلاق المعاشة أو الممارسة واقعيا فقد خصها بأكثر من عشرين كتاب مما عرفناه من كتبه المنشورة ناهيك عن المفقود وغير المنشور وغير الموجود. فإلى جانب البخلاء كانت رسالته في الأخلاق التي حملت عنوان المعاش والمعاد، التي هي روة في الأخلاق النظرية والأخلاق المشخصة المعاشة في الوقت ذاته، وربما يمكن إدراج التربيع والتدوير في هذا الإطار بوصفها قراءة في أنموذج فردى من الأخلاق المشخصة.(45)

تلاقحت في ذهن الجاحظ أصالته المبدعة وقريحته المتَّقدة مع غزارة المعارف والآداب والعلوم التي استقاها من مناهل متعدِّدة الجوانب ومتباينة الاتِّجاهات، وأثمرت رؤيةً جاحظيَّةً، لمختلف هذه المعارف والآداب والعلوم.

أثر البيئة في الأخلاق

هنا نستطيع تَبَيُّنَ كيفيَّة تأثير البيئة الجغرافيَّة والطَّبيعيَّة ودورها في تحديد سلوك النَّاس وميولهم وأهوائهم وطبائعهم... إلى حدٍّ جدٍّ بعيدٍ، ويؤكِّد مفكِّرنا هذه الحقيقة مرَّة أخرى فيقول: "لولا ما مَنَّ الله به على كلِّ جيلٍ منهم من التَّرغيب في كلِّ ما تحت أيديهم، وتزيين كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم، وكان ذلك مفوَّضاً إلى العقول، وإلى اختيارات النُّفوس . ما سَكَنَ أهل الغياض والأدغال في الغَمَق46 واللَّثَق47، ولما سكنوا مع البعوض والهمج، ولما سَكَنَ سُكَّان القلاع في الجبال، ولما أقام أصحاب البراري مع الذِّئاب والأفاعي وحيث من عزَّ بزَّ، ولا أقام أهل الأطراف في المخاوف والتَّغرير، ولما رضي أهل الغيران وبطون الأودية بتلك المساكن، ولالتمس الجميع السَّكن في الواسطة، وفي بيضة العرب، وفي دار الأمن والمتعة. وكذلك تكون أحوالهم في اختيار المكاسب والصِّناعات، وفي اختيار الأسماء والشَّهوات، ولاختاروا الخطير على الحقير، والكبير على الصغير".48

ولا عجب إذ ذاك في أن يكون لهذه البيئة تأثيرٌ واضحٌ في الأخلاق، وخاصَّةً إذا علمنا أنَّ الأخلاق أو الآداب قد وُضِعَتْ على أصول الطَّبائع،49 كما يقول الجاحظ. ولعلَّ في هذا ما يفسِّر لنا اجتماع أفراد كلِّ أمَّةٍ من الأمم على أنماطٍ معيَّنَةٍ من السُّلُوْكِ الأخلاقيِّ والاجتماعيِّ والنَّفسيِّ:"فالعرب كلُّهم على سبيل المثال، كما يقول أبو عثمان . شيءٌ واحدٌ، لأنَّ الدَّار والجزيرة واحدةٌ، والأخلاقَ و الشِّيَمَ واحدةٌ، وبينهم من التَّصاهر والتَّشابك والاتفاق في الأخلاق والأعراق، من جهة الخؤولة المردَّدَةِ والعمومة المشتبكة، ثُمَّ المناسبة التي بنيت على غريزة التُّربة، وطباع الأهواء والماء، فهم في ذلك شيءٌ واحدٌ في الطَّبيعة واللغة، والهمَّة والشَّمائل، والمراعي والرَّاية، والصِّناعة والشَّهوة".50

يبدو من ذلك أيضاً أنَّ الجاحظ يميل إلى أنَّ العوامل الطَّبيعيَّة تلعب دوراً ما في الأخلاق والعناصر المركِّبة للإنسان وهذا ما يؤكِّده في مكانٍ آخر فيقول:"ويدلُّ على صلاح مائهم كثرةُ دورهم،

وطول أعمارهم، وحسن عقولهم، ورفق أكفّهم، وحذقهم بجميع الصّناعات، وتقدُّمهم في ذلك لجميع النَّاس".51

وعلى ذلك فإنَّ التَّعامل بَيْنَ النَّاس من خلال مختلف العلاقات التي تنشأ فيما بينهم بسبب هذا الاجتماع أمرٌ لا يمكن التَّغافل عنه، وبالتَّالي فإنَّ الأخلاق الاجتماعيَّة هي المحور النَّاظم لهذه العلاقات. وأشدُّ ما يحتاج إليه النَّاس لتمتين أواصر اللقاء وتوثيق عرى التَّعامل والعلاقات فيما بينهم، هو التَّعاون، فإنَّ «حاجتهم إلى التَّعاون في درك ذلك، والتَّوازر عليه كحاجتهم إلى التَّعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتَّوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشَّاهد، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى، معانٍ متضمَّنة، وأسباب متَّصلة ، وحبال منعقدة".52وهذا الخلق، خلق التَّعاون والتَّآزر، فيما يبدو من كلام الجاحظ قائم بَيْنَ النَّاس بالضَّرورة لا بالاختيار، وكلُّ النَّاس يعملون به، من دون أن يعني ذلك صفاء النِّية ونزاهة القصد دائماً من التَّخلق بهذا الخلق، فقد ينطلق فعلاً من مقاصد أخلاقيَّة نبيلة، ونزوعٍ إلى الخير الصَّادق، ولكنَّهُ قد ينبجس أيضاً من دوافع ذاتيَّة أنانيَّة، وقد تكون حالة نفسيَّة معيَّنَة وراءه... هذا فيما خلا أنَّه ضرورة بحدِّ ذاته لا يمكن أن يستغني عنها كبيرٌ ولا صغيرٌ، ولا غنيٌ ولا فقيرٌ، ولا رعاعٌ ولا أميرٌ، ولا كريمٌ ولا حقيرٌ، إذ لَمْ يَخْلُقِ اللهُ تَعَالَى أَحَداً يَسْتَطِيْعُ بُلُوْغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ دُوْنَ الاسْتِعَانَةِ بِبَعْضِ مَنْ سُخِّرَ لَهُ، فَأَدْنَاهُمْ مُسَخَّرٌ لأَقْصَاهُمْ، وَأَجَلُّهُمْ مُيَسَّرٌ لأَدَقِّهِمْ، وَعَلَى ذلِكَ أَحْوَجَ الْمُلُوْكَ إِلَى السُّوَقَةِ فِيْ بَابٍ، وَأَحْوَجَ السُّوَقَةَ إِلَى الْمُلُوْكِ فِي بَابٍ، وَكَذلِكَ الغَنِيَّ وَالفَقِيْرَ، وَالعَبْدَ وَسَيِّدَهُ، ثُمَّ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى كُلَّ شَيءٍ للإِنْسَانِ خَوْلاً، وَفِي يَدِهِ مُذَلَّلاً مُيَسَّراً؛ إِمَّا بالاحْتِيَالِ له وَالتَّلَطُّفِ فِي إِرَاغَتِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ، وَإِمَّا بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ، وَالفَتْكِ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْتِيَهُ سَهْواً وَرَهْواً".53

ولعلَّ الجاحظ يميل إلى أنَّ الأخلاق الاجتماعيَّة، أو الأخلاق العمليَّة المقارِنة للسُّلوك الاجتماعي اليومي المرتبطة بمتطلبات الحياة الضَّروريَّة، إنَّما هي خبرةٌ تراكميَّةٌ تنتقل من حينٍ إلى حينٍ عَبْرَ وسائط مختلفةٍ، فكانت، بذلك، حاجةُ النَّاس إلى أخبار من سبقهم حاجة ضروريَّة أيضاً، ولذلك قال:"وحاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة

من يكون بعدنا إلى أخبارنا، ولذلك تقدَّمت في كتب الله البشَّارات بالرُّسل، ولم يسخر لهم جميع خلقه، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه، وجعل الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذَّة وإمتاع وازدياد في الآلة، وفي كلِّ ما أجذل النُّفوس، وجمع لهم العتاد، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفقٌ لكثرة حاجاتهم وشهواتهم، وعلى قَدْرِ اتِّساع معرفتهم وبُعْدِ غورهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفطرة الإنسانيَّة، ثُمَّ لم يقطع الزِّيادة لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرِّق بينهم وبَيْنَ العجز، إلا بعدم الأعيان، إذ كان العجز صفةً من صفات الخلق، ونعتاً من نعوت العبيد".54

خلاصة البحث

قد وجدنا من خلال الدراسة والبحث مصطلحات عديدة تتعلق بهذا الموضوع مثل تهذيب الأخلاق، وعلم الأخلاق وأدب الأخلاق وفلسفة الأخلاق والحكمة الخلقية. كما وجدنا استعمالات كثيرة للفظ "الخلق" مثل استعماله في معنى القوى الغريزة" أي الهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر" وهذا قريب من معنى السجية والطبع Characte.وكذلك استعماله للدلالة على "الحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقا أن يفعل شيئًا دون شيئ كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه وهذا قريب من معنى المزاج temperament.

والبحث يتحدث عن الأخلاق لغة واصطلاحا ويذكر آراء العلماء اللغويين وأقوالهم كقول ابن منظور:"الخُلُقُ والخُلْقُ السجية .. فهو بضم الخاء وسكونها الدين والطبع والسجية."وكقول الراغب الأصفهاني:"الخُلْقُ في الأصل شيء واحد كالشّرب والشُّرب والصَّرْم والصِّرْم لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخُص الخُلْقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى:(وإنك لعلى خُلق عظيم). وفيه تعريفات علماء الأخلاق كثيرة منها: تعريف الفارابي والجاحظ وابن قتيبه وابن مسكويه (ت 431هـ) والغزالي(ت 505هـ) **ويوسف القرضاوي**.

ومصدر الأخلاق عند الأدباء المسلمين،كانت الأخلاق من أول عهد الإسلام مبنية على الدين و مصدرها القرآن الكريم والأحاديث النبوية وحكم وأمثال وصلت إلى العرب من تجارب الزمان.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لكن خير وسعادة و "حسبنا الله ونعم الوكيل."

الهوامش

1 الفيروز آبادى، القاموس المحيط 229/3، جميل صلبيا المعجم الفلسفى: ج1 مادة أخلاق.

2 ابن منظور، لسان العرب: 86/10

3 المصدرنفسه ، المادة نفسها .

4 الراغب الاصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص 158.

5 الفارابي: تحصيل السعادة – منشورات حيدر آباد – بيروت 1926- ص 53.

6 ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ط2 ، تقديم حسن تميم دار مكتبة الحياه للطباعة والنشر ، بيروت . ص 51 .

7 المصدر نفسه ص: 41.

8 عبدالكريم زيدان :أصول الدعوة ، ط 3 ، دار العرفان ، قطر ، 1408هـ . ص 79 .

9 التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون 53/1.

10 مقداد بالجن :علم الاخلاق الإسلامية ، ص 43 .

11 محمد محمدي: "كتاب التاج للجاحظ وعلاقته بكتب تاجنامه" في الادب الفارسي الساساني" في مجلة الدراسات الأدبية،مجلة فصلية في الثقافتين العربية والفارسية و تفاعلهما، و يصدرها قسم اللغة الفارسية وآدابها بالجامعة اللبنانية – العدد الأول- 1959- ص 39.

12 محمد محمدي: "كتاب التاج للجاحظ و علاقته بكتب تاجنامه" في الادب الفارسي الساساني" في مجلة الدراسات الأدبية ، مجلة فصيلة في الثقافتين العربية والفارسية و تفاعلهما، و يصدرها قسم اللغة الفارسية وآدابها بالجامعة اللبنانية ، العدد الأول، 1959، ص 39.

13 الجاحظ: كتاب "التاج في اخلاق الملوك" تحقيق أحمد زكى باشا ط:1 المطبعة الأميرية بالقاهرة ، القاهرة، 1914هـ المقدمة ص
24- 25.

14 الجاحظ : المحاسن والأضداد- ثان قلوتن Van volten لندن – 1897- ص 27.

15 أحمد أمين : ظهر الاسلام 175/1.

16 عبدالعزيز فهمي: كتب الأخلاق والحكمة العملية" ص 24.

17 المصدر نفسه ص 24- 25.

18 المصدر نفسه 176/1.

19 تحصيل السعادة: الفارابي: منشورات حيدر آباد ,منشورات بيروت ,1926. ص53.

20 الفارابي في حدوده ورسومه:جعفر آل ياسين,عالم الكتب ,بيروت ,1985,ص235-236.

21 المرجع السابق نفسه,ص 236.

22 تاريخ الفكر الفلسفي"الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون":محمد علي أبو ريان, دار المعرفة الجامعية,1993.ص380-381.

23 المصدر نفسه 177/1.

24 مسكويه: تهذيب الأخلاق- ص9.

25 الجابرى: العقل الاخلاقى العربي: ص 408-409.

26 أحمد أمين : ظهر الإسلام-180/1.

27 الغزالي: إحياء علوم ا لد ين. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. د. ت 3 /53.

28 زكى مبارك : الأخلاق عند الغزالي. مطابع دار الكتاب العربي بمصر د. ت -ص 111.

29 المصدر نفسه ص 128.

30 عبدالسلام فهمى: كتب الأخلاق والحكمة العملية الساسانية وتأثيرها في الأدب الأخلاقي الإسلامي. ص 15-16.

31 ابن المقفع: "الأدب الصغير: تحقيق أحمد زكى باشا: ط1 مطبعة مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية 1911م. ص 28.

32 المصدر نفسه ص 46.

33 المصدر نفسه ص 66.

34 المصدر نفسه ص 70.

35 المصدر نفسه ص 24.

36 المصدر نفسه ص 112.

37 المبرد : الكامل في اللغة والأدب ص 46.

38 المصدر نفسه والصفحة.

39 المصدر نفسه والصفحة.

40 ابن عبدربه : العقد الفريد 62/20-63.

41 عبدالسلام فهمي: كتب الأخلاق والحكمة العملية الساسانيه ص 74.

42 - ابن قتيبه : عيون الأخبار- 11/1.

43 - المصدر نفسه 30/1.

44 - عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عندالجاحظ ص 1.

45 – المصدر نفسه.

46 غَمِقَ النبات يَغْمَقُ غَمَقاً، وهو نباتٌ غَمِقٌ: فسد من كثرة الأنداء عليه فوجدت لريحه خَمَّةً وفساداً. وغَمِقَت الأرضُ غَمَقاً، فهي غَمِقَةٌ: أصابها ندى وثقل ووخامة. وقال الأصمعي: الغَمَق: الندى. وقيل: الغَمَقُ: ركوب الندى الأرض. انظر ابن منظور: لسان العرب. مادة غمق.

47 اللثق: كلمةٌ تدلُّ على ترطيب الماءِ والمطرِ الأرضَ. وقد ألثقه المطر إذا بلَّه. انظر ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. مادة لثق.

48 الجاحظ: الأوطان والبلدان "الرسائل السياسية". ص 100. 101.

49 المصدر نفسه.

50 الجاحظ: البيان والتبيين . 3 . / 525.

51 الجاحظ: الأوطان والبلدان "الرسائل السياسية" . ص 118.

52 المصدر نفسه. 1 / 43.

53 المصدر نفسه 1 / 43. 44.

54 المصدر نفسه. 1 / 43.